استعمالات الألوان ودلالاتها في المصاحف المخطوطة عند الأندلسيين والمغاربة

الباحثة/ مريم بنت محمد بن عبده هزازي

باحثة بمرحلة الماجستير تخصص(الآداب في القراءات القرآنية)

قسم الدراسات القرآنية بجامعة الملك سعود

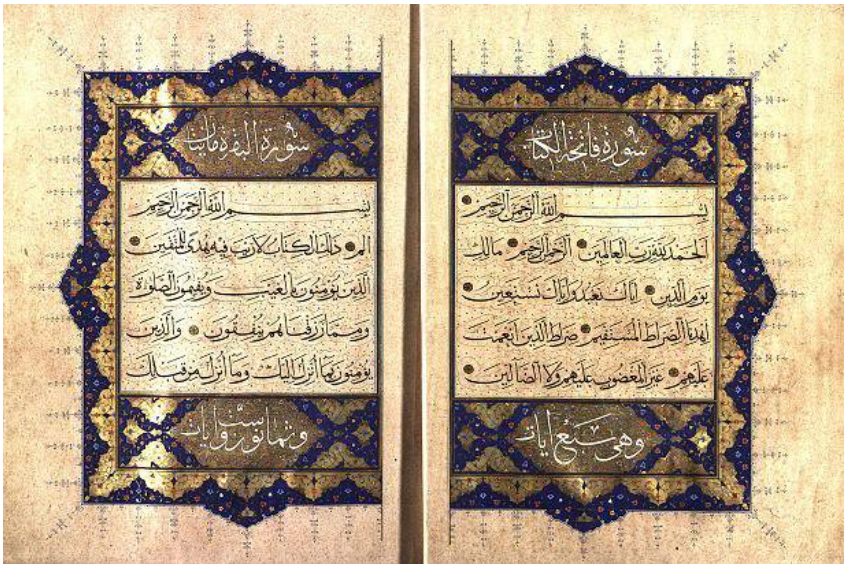

مقدمة:

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على المبعوث رحمة للعالمين.. وبعد:

اللون سر من أسرار الله وآية من آياته، فيه جمال وبيان ودلالة وهو من نعم الله التي قال فيها: ﴿وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ﴾ واستفاد منه الإنسان منذ القدم في مجالات شتى، كلٌ يسخره بحسب مهنته، وكان لخطاط المصاحف من هذه الاستفادة نصيب، فمنذ نزول الآيات على نبينا صلى الله عليه وسلم وحين اتخذ كتَّابًا للقرآن الكريم كزيد بن ثابت وأُبيّ بن كعب وغيرهم من الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين، كانوا يكتبون بما أتيح لهم من إمكانات وأدوات على الصحف والألواح والعسب[1]، ولكنها لم تكن بتلك الجماليات التي نراها اليوم أو حتى في القرون من بعدهم، فالصحابة إنما كانوا يكتبون باللون الأسود دون نقط ولا ضبط، وهذا مشاهد في المصاحف المخطوطة، كمصحف الإمام مثلًا (إن صحت نسبته) أو غيره من مصاحف الصحابة في أول شأنهم بالكتابة..

في الأسطر القادمة سأعرض عرضا (مختصرًا) لبداية دخول الألوان في كتابة الكلمات القرآنية في المصاحف (في القرون المتقدمة)، والأسباب التي دفعتهم لذلك، وموقف علماء المسلمين من هذا الاستحداث، ثم أذكر دلالات هذه الألوان في مصاحف الأندلسيين والمغاربة، وأعرض نموذج لمصحف مخطوط استعملت الألوان في كتابته. والله المسدد والموفق.

١) جمع القرآن –دراسة تحليلية لمروياته– تأليف: د. أكرم الدليمي ص١٢٥.

١- بداية دخول الألوان في المصاحف:

نشأت ظاهرة استعمال الألوان في عهد الصحابة وكبار التابعين، وذلك في النصف الأول من القرن الهجري الأول على يد أبي الأسود الدؤلي[١] (ت:٦٩ه)، وكان أول من استحدث نقط المصحف بسبب دخول اللحن على الألسن، كما جاء في الخبر عنه أنه سمع قارئ يقرأ:

{أَن الله بَرِيء من الْمُشْركين وَرَسُوله} (بنصب اللام)، فاستعظم ذَلِك أَبُو الْأسود وَقَالَ: عز وَجه الله أَن يبرأ من رَسُوله..

"فقرر أن ينقط المصحف ويضبطه بحيث لا يقع القارئ في اللحن"، واختار رجلًا من عبد الْقَيْس فَقَالَ خُذ الْمُصحف وصبغا يُخَالف لون المداد فَإِذا فتحت شفتي فانقط وَاحِدَة فَوق الْحَرْف وَإِذا ضممتهما فَاجْعَلْ النقطة إِلَى جَانب الْحَرْف وَإِذا كسرتهما فَاجْعَلْ النقطة فِي أَسْفَله فَإِن اتبعت شَيْئًا من هَذِه الحركات غنة فانقط نقطتين فابْتَدَأَ بالمصحف حَتَّى أَتَى على آخره..[٢]

فقوله (صبغًا يخالف لون المداد) يميل كثير من العلماء أنه الأحمر وهو ما اقتصر عليه أهل العراق في نقط مصاحفهم، وأما لون المداد فكان بالسواد.

وينبغي التنبه أن دخول الألوان في رسم المصاحف كان متفاوتًا بشكل ملحوظ، فليس شأنه في مصاحف المدينة كشأنه في مصاحف العراق أو الشام، ولا في مصاحف الأندلس أو المغرب، ويلاحظ من خلال تتبع المصاحف المخطوطة تفوق كتَّاب المصاحف في الأندلس والمغرب على غيرهم في هذا الجانب، وما امتازت به مصاحفهم من جماليات خير شاهد لذلك.

٢- أسباب استعمال الألوان في كتابة المصاحف:

الأول: أن يكون للزخرفة والتزيين:

ولم تعرف الزخرفة وتحلية المصاحف إلا في العصر العباسي، وكانت الصفحات الأولى والأخيرة وعناوين السور تحظى بعناية أكثر في تذهيبها وزخرفتها، وربما

---

١) اسمه ظالم بن عمرو الدؤلي قاضي البصرة (ت:٦٩ه).

٢) المحكم في نقط المصاحف للداني (ت:٤٤٤ه) ص٣. (بتصرف)

اشترك أكثر من واحد في زخرفة آيات المصحف الشريف وتذهيبها وكتابتها، وربما استغرقوا في ذلك أكثر من عام..

واستخدمت في ذلك أدوات عدة منها على سبيل المثال:

(المَرْمَلَة)، اسمها القديم المِتْرَبَة، وهي علبة يوضع فيها الرمل الأصفر، أو الأحمر، أو ما هو بين الحمرة والصفرة، لرش الكتابة بعد كتابتها، فيزيدها جمالا.[1]

الثاني: أن يكون لضبط المصاحف بغرض التبيين:

إن الذي دعا السلفَ –رحمهم الله– إلى استعمال الألوان في ضبط حروف القرآن الكريم وكلماته، هو عينه الذي دعاهم إلى إحداث النقط والشكل، وهو: (ما شاهدوه من أهل عصرهم، مع قربهم من زمن الفصاحة، من فساد ألسنتهم واختلاف ألفاظهم، ودخول اللحن على كثير من خواص الناس وعوامهم، فخافوا مع مرور الأيام وتطاول الأزمان من تزايد ذلك وتضاعفه فيمن يأتي من بعدهم من أجيال هم –بلا شك– دونهم في العلم والفصاحة)

فاستعانوا بالنقط وأضافوا له اللون للتمييز بين ما هو من صميم الهجاء الذي صنعه الصحابة –رضي الله عنهم– وما هو من قبيل الضبط الذي أحدثه التابعون.

وكانوا يرون أن التلوين أسرع إلى فهم القارئ من النقط كما ذكر ذلك ابن مجاهد[2] رحمه الله.

٣- موقف علماء المسلمين من كتابة المصاحف بالألوان:

هذه الإضافة في كتابة المصاحف أمر مستجدًا على الصحابة والتابعين لم يفعلوه في عهد النبي صلى الله عليه وسلم، فكان لابد أن يُبَيِّن العلماءُ الموقف منه، والحكم الشرعي فيه، وتلخصت أقوالهم كالآتي:

الأول: من قال بالجواز مطلقًا وحجتهم في ذلك (البيان والتعليم) كـ ربيعة ابن أبي عبد الرحمن، والأوزاعي _رحمهما الله_.

---

١) كتابة المصحف الشريف وطباعته تاريخها وأطوارها لـ د. محمد العوفي ص٧-٨

٢) أبو بكر بن مجاهد البغدادي واسمه: أحمد بن موسى بن العباس بن مجاهد التميمي الحافظ المقرئ وأول من سبع السبعة (ت:٣٢٤) ه

الثـــاني: من قال بالكراهة مطلقًا، وقال به كابن عمر وابن مسعود رضـــي الله عنهمـــا، وابن سيرين _رحمه الله_ في إحدى روايتيه، وحجة بعضهم في ذلك خـــشية الابتـــداع، وحجة الآخرين خشية الالتباس بين المرسوم والضبط.

الثالث: من قالوا بالكراهة في المصاحف الأمهات والإباحة في مصاحف وألواح التعليم، وهو مذهب مالك، وحجته التوسط بين المذهبين، فالكراهة في الأمهات مخافة الابتـــداع، والجواز لأجل البيان في حقِّ المتعلمين.[1]

٤- الألوان المستعملة في مصاحف الأندلسيين والمغاربة ودلالاتها:

وإنما خصصت الأندلسيين والمغاربة بشيء من البيان؛ لما يُلْحَظ فـــي مـــصاحفهم مـــن إبداع غير مسبوق، وتوسع في استعمال وتعدد الألوان وفق قواعد متقنة، خـــلاف لمـــا كان في مصاحف أهل المدينة أو الشام أو العراق الذين اقتصروا على الأحمر والأصفر فقط أو أحدهما، بينما تجد في مصاحف الأندلـــسيين والمغاربـــة (الأســـود، الأصـــفر، الأحمر، الأخضر، اللازورد)، معتمدين على نقط أبي الأسود الـــدؤلي المـــذكور آنفًـــا، جامعين بين إيضاح الكلمة وجمالها، متفننين في كتابتها خطًا ورسمًا، ولونا، وفيما يـــأتي بيان لطريقتهم في الكتابة ومدلولات الألوان فيها "وسأردف ذلـــك بنمـــوذج لمـــصحف مخطوط لمزيد من البيان"

اللون الأسود:

فقد استعملوه في إعجام الحروف المتلابسة كالدال والذال، والثاء والتـــاء، فـــإن نقطهـــا يكون باللون الأسود، وأدرجوا مع ذلك الألف الثابتـــة لفظًـــا وخطًـــا، وأطلـــق عليهـــا الأندلسيين الألف السوداء تمييزًا لها عن الألف الحمراء الثابتة خطًا لا لفظًـــا، وســـمَّاها المغاربة بالألف الكحلاء.

اللون الأصفر:

اتفق الأندلسيين والمغاربة على الكتابة بالأصفر في الهمزات المحققة، وقد سبقهم لـــذلك أهل المدينة، وإنما أخذوه منهم، وقولنا المحققة تمييزًا عن اللينة التي كتبوها بالحمرة..

---

١) استعمال الألوان في اصطلاحات ضبط المصاحف بين علماء الأندلس والمغرب، تأليف د. مـــولاي محمـــد الإدريـــسي الطاهري ص٢٩.

قال أبو عبدالله الخراز[1]:

فَضَبْطُ ما حُـــــقِّقَ بالصَّفْرَاءِ نَقْطٌ وَمَـــا سُـــــهِّل بالحمراءِ

اللون الأخضر:

واشتُهِرَ لديهم "أي المغاربة وأهل الأندلس" استعماله لضبط ألفات الوصل للدلالة علـــى كيفية الابتداء بها، وهيئتها (نقطة خضراء كنقط الإعجام، مفصولة عن ألـــف الوصـــل، في جميع الأحوال)، فإن ابتدئ بألف وصل مضمومة، جعلت النقطة أمام الألف، نحـــو: (محظورًا انظر)

وإن ابتدئ بألف الوصل مفتوحة، جعلت النقطة فوق الألف، نحو: (قالَ الله)، وإن ابتدئ بألف الوصل مكسورة، جعلت النقطة تحت الألف، نحو (إنِ ارتبتم).

اللون اللازورد:

(وقيل هو الأزرق) وهو مما اشتهر عند الأندلسيين، ولكن قل استعماله مقارنـــة بغيـــره من الألوان، وخيّر الشيخان[2] في استعماله أو استعمال اللون الأخضر في نقـــط ألفـــات الوصل للدلالة على كيفية الابتداء.. وخيَّر أيضًا ابن وثيق[3]، بين الأحمر واللازورد فـــي ضبط الحرف المشدد والسكون فقال: (وللشد علامـــات بـــالحمرة أو الـــلازورد ثـــلاث أسنان).

ولفظ اللازورد إنما عرف بهذا الاسم عند الأندلسيين دون المغاربة إذ كـــانوا يـــسمونه الأزرق.

اللون الأحمر:

وهو الأكثر استعمالًا، ومجالات استعماله بلغت سبعة عشر موضعًا، أذكرها إجمالًا: (الحركات– التنوين– السكون– التشديد– الميم الصغرى الدالة على قلب النون الـــساكنة والتنوين عند الباء– الاختلاس– الإمالة– المط (وهو علامـــة المـــد) – صـــلة الهـــاء– الإشمام– صلة ياءات الزوائد– الزائد في اللفظ الساقط من الرسم–دارة المزيد (وهي ما

١) محمد بن محمد بن إبراهيم، أبو عبد الله الأَموي الشريشي، الشهير بالخراز، عالم بالقراءات له كتب، منها: أرجوزة (مورد الظمآن في رسم أحرف القرآن)، (ت:٧١٨ه).

٢) الشيخان: أبو عمرو الداني (ت٤٤٤ه)، وأبو داوُد سليمان بن نجاح الأندلسي (ت:٤٩٦ه) إمامان في علم القراءات.

٣) ابن وثيق إبراهيم بن محمد بن عبد الرحمن الأموي المقرئ (ت:٦٥٤ه).

زيد في الرسم من ألف أو واو أو ياء، وسقط في اللفظ) – الهمز المسهل على مذهب التسهيل– جرة النقل على مذهب ورش عن نافع– جرة الصلة لألفات الوصل– لفظ {قَالُوا يَا أَبَانَا مَا لَكَ لَا تَأْمَنَّا عَلَىٰ يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُ لَنَاصِحُونَ} [سورة يوسف:١١]).[1]

سورة المائدة بالخط المغربي
١٢٥٠م ١٣٥٠م
توجد بمكتبة الكونغرس
الويات المتحدة

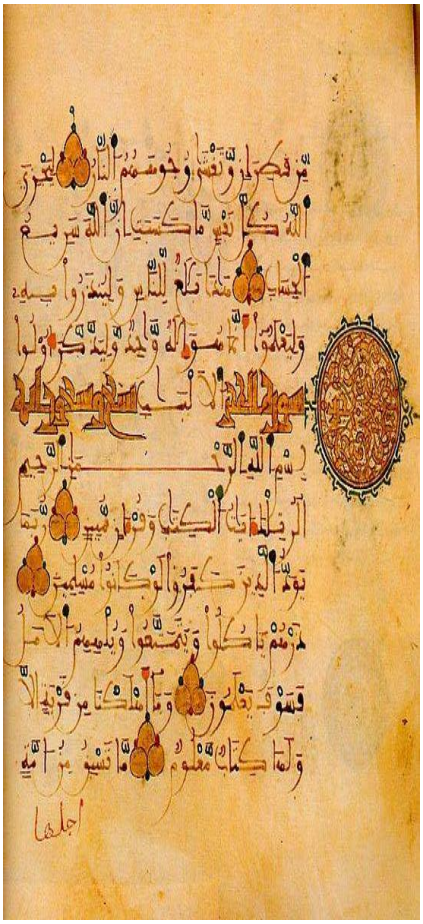

مخطوطة أندلسية كتبت بالخط الكوفي
تعود للقرن الثاني عشر الميلادي

١) لمزيد من التفصيل في المسألة راجع كتاب استعمال الألوان في اصطلاحات ضبط المصاحف بين علماء الأندلس والمغرب،
تأليف د. مولاي محمد الإدريسي الطاهري ص٤٦–٦٧